قاعدة الشك والتمحيص في المنهج الخلدوني أصولها وأثرها في العلوم الإنسانية

أ. بوداود حسين
قسم علم النفس وعلوم التربية
جامعة الأغواط

تمهيد:

العلم لا وطن له، بل هو ملك الإنسانية جمعاء. ارتقى بفضل جهود مستمرة على شكل تراكمي ساهمت كل حضارة بشرية في بناء صرحه شيئا فشيئا، حتى وصل إلى الكيفية التي هو عليها في عصرنا ولعله سيرتقي مستقبلا إلى مستويات أرقى مما هو عليه .

غير أن مساهمة كل حضارة في بناء التفكير العلمي، كانت متفاوتة .فعلى الرغم من عظمة مساهمة الحضارة اليونانية في الفلسفة والمنطق والتفكير العلمي، فإن ما اتسمت به تلك الحضارة هو طابعها النظري. نلمس ذلك من خلال نفور بعض النظريات الفلسفية من الحس والتجريب، كما هو ملاحظ في الفلسفة الأفلاطونية مثلا، واتصاف المنطق الأرسطي بالصورية وإهماله للواقع، الأمر الذي تداركته الحضارة الإسلامية من خلال مصادرها الأساسية، متمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة خاصة، ومن خلال مفكريها في مختلف مجالات العلوم .حيث تحاول بعض الدراسات التأكيد على أن المنهج العلمي الاستقرائي إبداع إسلامي بحت .[1]

1 ـ مشكلة البحث :

وفي هذا السياق، تذهب دراسات أخرى في مجال العلوم الإنسانية إلى « أن ابن خلدون هو المؤسس الأول لعلم الاجتماع في العالم أجمع شرقيه وغربيه. وقد

سبق في ذلك (أوغست كونت) الذي يعده الغربيون أول مؤسس لعلم الاجتماع، وذلك بخمسة قرون»[2]« وتتجلى عبقرية ابن خلدون كذلك، في أنه لم ينشئ علم الاجتماع الإنساني والعمران البشري فحسب، بل إنه قد وضع أيضا لهذا العلم قواعد منهج أصيلة وطرائق بحث مبتكرة ...فهو يقول عن علمه الجديد : « واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا وطريقة مبتدعة وأسلوبا [3] » »[4] ويعلن منذ البداية استقلالية علمه، و يحدد موضوعه ومسائله : « وكأن هذا علم مستقل بنفسه فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته، واحدة بعد أخرى، وهذا شأن كل علم من العلوم، وضعيا كان أو عقليا» [5] . كما أن ابن خلدون يقرر بوضوح في ثنايا مقدمته أصالة علمه :« وكأنه علم مستنبط النشأة. ولعمري، لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة. ما أدري، ألغفلتهم عن ذلك؟ وليس الظن بهم، أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل[6]».

وتبدو إسهامات ابن خلدون جلية في علمي التاريخ وعلم العمران البشري (علم الاجتماع) خاصة من خلال قاعدة جديدة مبتكر ة هي قاعدة الشك والتمحيص، من خلال ممارسة أسلوب النقد والتأكد من صحة الخبر. ولعل (ابن خلدون)في ذلك كان قد استفاد من جهود من سبقوه في ذلك من علماء الإسلام، كما كان لجهوده تلك تأثيرات في مختلف العلوم الإنسانية، سنجتهد في تلمسها تباعا.

2 ـ التاريخ قبل بن خلدون :

كان التاريخ قبل (مقدمة ابن خلدون) لونا من ألوان الأدب ونوعا من المسامرة وسرد الحوادث يتوخى إمتاع النفوس ومؤانستها وإثارة كوامنها بذكر التهويلات الأعاجيب والأوهام[7]. ولقد تكونت لدى العرب مادة تاريخية هامة لا يستهان بها قوامها السيرة والمغازي والأنساب والقصص وأيام العرب، وكلها فنون تاريخية سبقت ظهور التاريخ العام وكانت روافد صبت في مجراه الكبير وأمدته

بالغذاء العام . والفرق بين التاريخ العام والفنون التاريخية هو ما في التاريخ العام من وحدة في الموضوع أخذت تتضح مع الزمن، وما في الفنون التاريخية من شرود وتفكك وفوضى .ولم تظهر الدراسات التاريخية المنظمة عند العرب قبل القرن الثالث الهجري وفي أحسن الأحوال كان هم كبار المؤرخين نقل الأخبار والروايات بأمانة، و تسجيلها بدقة وتحصيل مادة وفيرة منها، تعين على تصوير الماضي تصويرا واضحا.[8] ولعل من أبرز هؤلاء ابن جرير الطبري (توفي سنة 310هـ - 923م) . حيث يسجل في مقدمة كتابه " تاريخ الأمم والملوك" قائلا: « وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه، مما شرطت أني راسمه فيه، إنما هو على ما رويت من الأخبار أنا ذاكرها فيه، و الآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدراك بحجج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه، إذا كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم، إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس . فمهما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين، مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة، ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، و إنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا »[9]

3 ـ أهمية المنهج والنقد :

إن الجديد في العلم الخلدوني ليس هو الموضوع بقدر ما هو المنهج، فابن خلدون كمؤرخ لم يأت بجديد، وربما وجد من المؤرخين العرب والعجم من يتفوق عليه كثيرا ولكنه كصاحب نظرية في التاريخ كان عديم المثال حتى ظهور (فيكو1668 - 1744م)VICO بعده بأكثر من ثلاثمائة عام، وبعبارة أخرى إن التاريخ عنده لم يعد سردا للحوادث بل أصبح تعليلا لها[10].لكن ميزة ابن خلدون أنه أكد على أن نقل الأخبار في رواية الأحداث التاريخية مهما كانت ذات أهمية، فإن نقد

تلك الأخبار أهم، وهذا إنما يتأتى من خلال أهم قاعدة في المنهج الخلدوني وهي قاعدة الشك والتمحيص.

فالمنهج الخلدوني هو الدليل والنقد والاستقصاء والملاحظة: تحليل الأخبار ونقدها نقدا علميا، ونقد الطرق المتبعة عند المؤرخين والتعرف بمواطن الخبر، واستقصاء مظانه، ومناقشة الروايات والمقارنة بينها، وبذلك تكمل الرواية، وتحقق الدراية ما عسى أن يكون في الخبر من تحريف أو مبالغة أو تزوير.

إن قضية المنهج في البحث العلمي، قضية جوهرية، ذلك أن المنهج هو محرك كل حضارة، كما يدل على ذلك تاريخ الحضارات الإنسانية، وهو ينم عن حركية العقل الإنساني وإبداعياته.

وفي تاريخ مناهج العلوم نجد أن المنهج يحدث ما يشبه الانقلاب الفكري يمس طريقة التفكير والذي سرعان ما يتحول إلى انقلاب حضاري يمس طريق التعامل في المجتمع برمته . وغالبا ما يحدث ذلك من خلال كتاب واحد يعبر عن عبقرية صاحبه .نجد ذلك مثلا في كتاب الأصول عند(أوقليدس) في التأسيس لعلم الرياضيات أو كتاب الرسالة للإمام (الشافعي)(ت820/767م) في التأسيس لعلم أصول الفقه والذي يعبر عن أصالة الفكر الإسلامي، أوكتاب الموافقات للإمام(الشاطبي)(ت 790ه/1388م الذي يتضمن التجديد في هذا العلم .أو كتاب مقال في الطريقة لـ(ديكارت)(ت1650)R Descartes .

كما أن النقد هو دليل الذكاء البشري، باعتبار النقد أحد خصائص الذكاء، وهو استبعاد لكل تقليد أو جمود، ووسيلة ناجعة لتصويب الأخطاء ووسيلة للبناء والفاعلية، وأن التخلف الاجتماعي والأزمة الثقافية إنما تنشأ عن غياب النقد[11].

وهكذا يعتبر الشك أداة فعالة للنقد كما مارسه الفلاسفة اليونان في تأملاتهم، كما مارسه مفكرو الإسلام مثل (الغزالي) و(ابن تيمية) خاصة، كما مارسه (ديكارت) عند الأوروبيين.

وفي تأكيد (ابن خلدون) على النقد، وعلى الشك دليل على أهمية الاتصاف باليقظة العقلية وعدم الاستسلام للغفلة والإتباع على الأقل في العمل العلمي من خلال دراسة الظواهر المختلفة. ولهذا أثبت الغزالي نجاعة الشك في طلب الحقيقة .لقد ذم الغزالي – من قبل – تبلد الحس من خلال الإلف والعادة [12] وعدم الالتفات إلى الظواهر الكونية، وتأثير الخالق سبحانه فيهما في قوله : « إن الوجود عند الشيء لا يدل أنه موجود به » [13].. فالنقد والشك إذن أداة لكسر المألوف، واستبعاد الغفلة التي تحرم الإنسان من جوهر إنسانيته كونه عاقلا أي كونه ناقدا مبدعا لا غافلا مقلّدا.

إن الفكر النقدي يعني أيضا استبعاد تأثيرات الآراء والأحكام المسبقة على النحو الذي بيّنه (غاستون باشلار) من خلال (العوائق الإبستمولوجية) التي تقتضي (القطيعة الإبستمولوجية)، وهذا في الارتقاء بالتفكير العلمي وتطويره. [14]

إن بين المنهج والمنطق علاقة وطيدة، ذلك أن المنهج مبني على أسس منطقية، من حيث أن المنطق هو عدم التناقض .لذا تمثل المنطق الأرسطي في(عدم تناقض الفكر مع ذاته)، فاعتبر منطقا صوريا وتمثل المنهج التجريبي في المنطق الاستقرائي، من حيث هو(عدم تناقض الفكر مع العالم الخارجي).[15]

لقد أسس (أرسطو) المنطق الصوري، وجعل القياس له منهجا، ووضع للقياس قواعد .كما يعتبر الأوروبيون (فرنسيس بيكون) 1561 - 1626 F.BACON مؤسسا للمنهج الاستقرائي، واعتبروا (جون ستوارت مل) 1806 - j.s.mill1873 اضعا لقواعد الاستقراء. كما اعتبروا (أوغست كونت 1798 - August Comte 1857 مؤسسا لعلم الاجتماع و(إميل دوركايم1858 - 1917 E.Durkheim واضعا لقواعد هذا العلم.

وفي السياق نفسه نجد (عبد الرحمن ابن خلدون) مؤسسا لعلم العمران البشري وواضعا في الآن نفسه قواعد منهج هذا العلم.*

4 ـ معنى قاعدة الشك والتمحيص :

الشك من الناحية اللغوية هو الارتياب، وهو خلاف اليقين [16] وشككت الشيء إذا جمعته بشيء تدخله فيه وفي الاصطلاح، الشك هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك . [17]فالشك إذن هو تعليق الحكم، أي دون نفي أو إثبات .فعندما: أقول هذا الرأي صواب فأكون قد حكمت بالإثبات .وعندما أقول: هذا الرأي ليس صوابا، فأكون قد حكمت بالنفي . والشك هو عدم إصدار للحكم.

وقيل الشك هو الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب إلى أحدهما، فإذا ترجح أحدهما ولم يطرح الآخر فهو ظن[18]. فالظن هو ترجيح أحد المتناقضين دون تأكد.جاء في القرآن الكريم :﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم﴾[19].

وبالنسبة للتمحيص، نقول: محص الله ما بك أي أذهبه عنك.ومحص الشيء :خلصه من كل عيب ومحص الذهب بالنار :خلصه مما يشوبه من الغش. يقال :" محص الله عن فلان ذنوبه " أي نقصه[20]وطهره منها. جاء في القرآن الكريم : ﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾[21]. ويفهم من هذا أن التمحيص في الاصطلاح هو تنقية المعلومات، بما فيها من أخبار وتصفيتها عن طريق اختبارها.

فقاعدة الشك والتمحيص تعني التريث في إصدار الأحكام، والتثبت في قبول الأخبار وتصديقها، والتأكد من مدى صحتها عن طريق اختبارها والتحقيق فيها .

5 ـ نماذج من نقد (ابن خلدون) لبعض روايات سابقيه:

وفي هذا الصدد قدم لنا ابن خلدون في الصفحات الأولى من مقدمته نماذج من التحقيقات** يعتمد فيها على تطبيق قاعدة الشك والتمحيص نكتفي هنا بذكر تحقيقين :

أما أولهما، فتحقيق سكاني لما نقله « (المسعودي) وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل، وأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه، بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها، فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون(...) وأيضا فالذي بين موسى وإسرائيل إنما هو أربعة آباء على ما ذكره المحققون(...) ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد. وإن زعموا أن عدد تلك الجيوش إنما كان في زمن سليمان ومن بعده، فبعيد أيضا، إذ ليس بين سليمان وإسرائيل إلا أحد عشر أبا(...) ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد إلى مثل هذا العدد الذي زعموه، اللهم إلى المئين والآلاف فربما يكون، وأما أن يتجاوز إلى ما بعدهما من عقود الأعداد فبعيد. واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف، تجد زعمهم باطلا ونقلهم كاذبا»[22] والسبب في عدم صحة هذه الرواية أنها تتعلق بإحصاء الأعداد، التي كثيرا ما تكون" مظنة الكذب ومطية الهذر" أي الخلط والتحدث بما لا يمكن أن يكون.[23]

وأما التحقيق الثاني فهو تحقيق حربي لجيوش موسى عليه السلام [24] وفيه يقول ابن خلدون:« ثم إن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينهما زحف أو قتال لضيق ساحة الأرض عنها، وبعدها إذا اصطفت عن مدى البصر مرتين أو ثلاثا أو أزيد.فكيف يقتتل الفريقان أو تكون غلبة أحد الصفين وشيء من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر» [25]

6 ـ الأصول المنهجية لقاعدة الشك والتمحيص :

ساعدت عدة عناصر (ابن خلدون) في صياغة منهجه وبالأخص قاعدته في الشك والتمحيص، ولعل من أبرز تلك العناصر ما يلي :

أ ـ القرآن الكريم ومنهج التبيين :

يعتبر القرآن المصدر الأول والرئيسي لكل فكر إسلامي فهو فضلا على احتوائه لحوادث تاريخية ثرية، و فضلا على رسمه لمنهج واضح في تفسير التاريخ

من وجهة نظر إسلامية، وإبرازه للسنن الربانية في التاريخ البشري والتي صارت تعرف بالقوانين العلمية التي تتحكم في سير الظواهر في العلم الحديث استند ابن خلدون إلى أكثر من خمس وأربعين أية من القرآن لهذا الغرض.[26] - فضلا على هذا وذاك - فلعل (ابن خلدون)استلهم (قاعدة الشك والتمحيص) من مضامين الآية القرآنية: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق [27] بنبإ فتبينوا ﴾. [28] جاء في مختصر تفسير الطبري: «إن جاءكم فاسق بنبإ فتثبتوا» [29] فالتبيين إذن هو التحري والتأكد والتحقق. ويعني عدم التسرع في نقل الخبر أو في إصدار الأحكام.فهو يوحي بالمعنى التي تعطيه قاعدة الشك والتمحيص.

فمنهج التبيين منهج أصيل في الفكر الإسلامي وهذا لتحقيق العدل واستبعاد الظلم، وإقرار الموضوعية والتجرد من الأهواء والانطباعات الذاتية واجتناب الظن :﴿ وإن الظن لا يغني من الحق شيئا ﴾ [30]

ب ـ علم الجرح والتعديل:

علاوة على القرآن الكريم، كانت عمدة (ابن خلدون) على علم إسلامي بحت يعرف بعلم مصطلح الحديث وعلى ما في هذا العلم من مناهج وطرق لتحقيق الحديث واستقصائه رواية ودراية، فقد توصل المسلمون قبل (ابن خلدون) إلى كل ما توصل إليه علماء مناهج البحث التاريخي من نقد النصوص الداخلي والخارجي، كما عرفوا طرق التحليل والتركيب التاريخية وفحص الوثائق، ومنهج المقارنة والتقسيم والتصنيف.[31] يقول ابن خلدون :« ومن علوم الأحاديث النظر في الأسانيد، ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط، لأن العمل إنما وجب بما يغلب على الظن صدقه من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجتهد في الطريق التي تحصل ذلك الظن، وهو بمعرفة رواة الحديث بالعدالة والضبط. وإنما يثبت ذلك بالنقل عن أعلام الدين، بتعديلهم وبراءتهم من الجرح والغفلة، ويكون لنا

ذلك دليلا على القبول أو الترك. وكذلك مراتب هؤلاء النقلة من الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك وتميزهم فيه واحدا واحدا »[32]

وفي هذا الصدد اشترط علماء المصطلح خمسة شروط يجب توفرها في الحديث الصحيح هي: الاتصال - العدل - الضبط - الخلو من الشذوذ - الخلو من العلة [33]ولذا فالتحقق من هذه الشروط لا يتأتى إلا باعتماد علم الجرح والتعديل ذو الوظيفة النقدية .

ج ـ **أبو حامد الغزالي**: (**توفي سنة** 505هـ/1111م):

لقد اتصل أبو حامد الغزالي بالفلسفة، و بعد طول دراسة وتعمق في كبريات مسائلها، انتهى إلى نقد مذاهب كبار الفلاسفة من اليونان كأفلاطون وأرسطو ومن المسلمين كالفارابي وابن سينا من خلال كتابه : تهافت الفلاسفة .

كما تبرز جهود الغزالي النقدية، من خلال منهج الشك خاصة في كتابه "المنقذ من الضلال " حيث شك في المحسوسات ثم في المعقولات لعدم ثقته في الحواس والعقل .يقول الغزالي :

« فانتهى بي طول التشكك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضا، وأخذت تتسع للشك فيها وتقول: من أين الثقة بالمحسوسات، وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفا غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة، بعد ساعة، تعرف أنه متحرك، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة بغتة بل على التدريج، ذرة ذرة، حتى لم يكن له حالة وقوف، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيرا في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار. هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل إلى مدافعته».[34] وبعد شك الغزالي في الحواس، واعتبارها مصدرا غير مأمون في اكتساب المعرفة اتجه صوب العقل. فيقول:

« فقالت المحسوسات بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ؟ وقد كنت واثقا بي فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي. فلعل وراء إدراك العقل حاكما آخر، إذا تجلى، كذّب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذّب الحس في حكمه. وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته ». [35]

د ـ تقي الدين ابن تيمية :(**توفي سنة** 728 هـ / 1327 م).

انتقد ابن تيميه المنطق الأرسطي من خلال كتابيه : نقض المنطق والرد على المنطقيين حيث نقد الحد الأرسطي والقضية بجميع أجزائها، كما نقد القياس الأرسطي والاستدلالات [36].

ونهج ابن تيمية في نقده للحد منهج الهدم والبناء في آن واحد.فكان يهدم الحدود الأرسطية ليشيد مكانها الحدود المستقاة من القرآن .وهكذا يكون نقده للحد كما هو للقضية والقياس من جانبين، جانب هدمي وجانب إنشائي.يقول ابن تيمية: «اعلم أنهم بنوا المنطق على الكلام في الحد ونوعه .قالوا لأن العلم إما تصور وإما تصديق .فالطريق الذي ينال به التصور هو الحد والطريق الذي ينال به التصديق هو القياس .ويرد عليهم بأن الكلام في أربعة مقامات مقامين سالبين، ومقامين موجبين.فالأولان في قولهم :أن التصور المطلوب لا ينال إلا بالحد، والثاني أن التصديق المطلوب لا ينال إلا بالقياس والآخران في أن الحد يفيد العلم بالتصورات، وأن القياس يفيد العلم بالتصديقات» [37]

ويرى ابن تيمية أيضا أن الكليات العقلية موجودة في أذهان الناس، وليس لها كيان خارجي قائم بذاته، وأن العلم الصحيح هو الذي يستمد حقائقه من الأشياء الجزئية المتعينة بأشخاصها في الخارج، وليس من الكليات العقلية الموجودة في الذهن. ولا يمكن التوصل إلى العلم الصحيح، إلا بالانتقال من الجزئي، وفق ما يسميه الفقهاء بقياس الغائب على الشاهد. فإذا ما نظمت التجربة هذا القياس، وإذا ما حدده أيضا مبدأ السببية، فإنه يكون موصلا إلى اليقين. [38]

7 ـ أثر قاعدة الشك والتمحيص في مناهج العلوم الإنسانية :

يبرز أثر منهج النقد أو الشك والتمحيص في مناهج جل العلوم، وفي العلوم الإنسانية خاصة وذلك من خلال المنهج التاريخي الذي يتضمن في خطواته مرحلة النقد بنوعيه :النقد الظاهري (الخارجي) . والنقد (الباطني)الداخلي.

ولذا« يهتم الباحثون بالمنهج التاريخي لما يحويه من مجالات متعددة. فإلى جانب إمكانية تطبيقه على مادة التاريخ، باستطاعة الباحث أن يطبقه في إجراء بحوث في الفيزياء، والكيمياء، والعلوم الطبيعية بصورة عامة والدين والقانون والطب للتحقق من الحقائق القديمة وصدقها، ومدى ارتباطها بالمواد المتصلة بها من قريب أو بعيد. وهذا مرده إلى القواعد الثابتة التي وضعها المؤرخون وأرسوا دعائمها في تقويم ونقد الدراسات السابقة التي تعالج مشكلة ما من المشكلات موضع البحث. وكذلك تدله على الأدوات والإجراءات التي استعملها من سبقه في هذا العلم، والظروف التي كانت تحيط بهم، والتي حددت نتائج الدراسات السابقة.وعلى هذا يمكننا القول أن المنهج التاريخي في البحث يمكن استعماله في إجراء بحوث أخرى، لما لهذا المنهج من قواعد محددة ناقدة».[39]

ففي علم التاريخ، حيث بدأ ابن خلدون في التأسيس لمنهجه، يبدو النقد جليا من خلال قاعدة الشك والتمحيص .وهو الأمر نفسه بالنسبة لعلم العمران البشري، الذي هو بمثابة علم الاجتماع في عصرنا، والذي هو وثيق الصلة بعلم التاريخ في التصور الخلدوني عندما اعتبر علم العمران أسا لعلم التاريخ إذ لا يمكن التحقق من الأخبار دون التعرف على(طبائع العمران) و(أصول العادة) كما يسميها ابن خلدون.و يحتاج عالم الاجتماع في دراسته إلى تطبيق المنهج التاريخي في دراسته للظواهر الاجتماعية وللمواضيع ذات البعد التاريخي كأصل الأسرة مثلا.

وهو ما نلاحظه في علم الاقتصاد أيضا الذي يدرس الظواهر الاقتصادية حيث يحتاج إلى كثير من التثبت والتريث وعدم التسرع في إصدار الأحكام، أو الانطلاق

من الأحكام المسبقة أو التقيد بالمألوف من الأفكار والعادات ورفض الجديد والاجتهاد .ولقد كان ابن خلدون مشبعا بروح علمية شمولية بكل ما تقتضيه من عقلانية وتعميم ومنهجية.[40]إذ حضيت الدراسة الاقتصادية بأهمية خاصة في مقدمة ابن خلدون من خلال العنوان التالي :" الكتاب الأولى في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرضه لها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع " [41]

فالاجتماع البشري عند ابن خلدون يعتمد على الاقتصاد إذ أن حاجيات المعاش تتطلب التعاون أو بعبارة أخرى هناك تقسم للعمل لكي يضمن حياة المجتمع . [42]وكذلك يرى بأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية، فيستنتج من آرائه بأن العمل هو المقياس الأساسي للقيمة [43] .

لقد أصبح الاقتصاد العامل الأساسي الذي يتدخل في كل العلوم الإنسانية ويفسرها .بل إن الدارسين من علماء الاجتماع والتاريخ خاصة أصبحوا يولون اهتماما فائقا للعامل الاقتصادي وحاولوا إبراز ه من خلال الآثار التي خلفتها المجتمعات الأولى لتفسير وضعيتها، وبالتالي لتفهمها. [44]

وفي علوم التربية يطبق الباحث التربوي المنهج التاريخي في دراسة الظواهر التربوية ذات الطبيعة التاريخية من خلال نقد المصادر الذي يعتمدها، هذا فضلا على ضرورة الاتصاف بالتثبت والتدقيق من استعمال قاعدة الشك والتمحيص[45]

والأمر نفسه ينطبق على علوم السياسة والاتصال في رصد الظواهر السياسية ذات البعد التاريخي وفي تلقي الخبر يوميا من خلال وسائل الاتصال، وكذلك العلوم القانونية في التحقق من قضايا الإجرام إذ" أن المتهم في نظر العدالة بريء حتى تثبت إدانته " أي بعد التحري والتحقيق في ملابسات القضية التي هو متهم فيها .

إن الملاحظ للأحداث في حياتنا اليومية يستطيع أن يقف على كثير من الأحكام المسبقة التي يصدرها الناس، وفي مواقفهم مما يحدث على مسمع ومرأى

منهم مما يتلقونه من أخبار عن بعضهم البعض، أو عن وسائل الأعلام المختلفة . فإذا استبعدنا التثبت في تقبل تلك الأخبار وعدم التحقق من صحتها فإننا نكون مطية لتقبل الزيف والخطأ، فنقع في الظلم والتعسف.ومن باب أولى أن تتسم حياتنا العلمية بمنهج الشك والتمحيص حتى تصح أحكامنا التي نصدرها .

8 ـ ابن خلدون ومالك بن نبي وواجب الجيل المعاصر:

يبدو لنا أن أبرز من يعتبر استمرارا لابن خلدون في العالم العربي والإسلامي في عصرنا، هو المفكر الجزائري مالك بن نبي (1905 - 1973)، خاصة في ما يتعلق بالدراسات الاجتماعية وفي فلسفة الحضارة وذلك من خلال انشغالهما بواقع ومشكلات العالم العربي والإسلامي ودراسته في ضوء التفكير العلمي، من أجل النهوض به من التخلف والانحطاط الذي صار إليه منذ قرون. وعليه، إن واجب الجيل المعاصر في العالم العربي والإسلامي هو العمل على الاستفادة من المنهج الخلدوني في الدراسات العلمية عن طريق البحث العلمي الجاد والعميق والمستمر، وهو السبيل الأنجع لحل المشكلات التي تعانيها مجتمعاتنا في مختلف المجالات .فعلى الرغم من الدراسات التي أجريت حول الفكر الخلدوني، فإن"المقدمة " ما زالت مادة خاما يستطيع أن يستلهم منها الدارسون مناهج وقواعد فعالة تعينهم في التخطيط لدراساتهم .

9 ـ آفاق الفكر والمنهج الخلدوني :

ومن خلال عرضنا السابق لأصول "قاعدة الشك" وتأثيراتها، يمكن أن نسوق شهادات بعض الدارسين للفكر الخلدوني، كشهادة المفكر الفرنسي (روجي غارودي) حيث قال: "ويبقى ابن خلدون شخصية عالمية في مجال العلوم الإنسانية إلى جانب اتصافه بأنه دبلوماسي ومحارب ومؤرخ وعالم اجتماع وفيلسوف وفنان ...يتضح أن (ابن خلدون) هو مخترع مفهوم علمي عن التاريخ وعن علم الاجتماع " [46] ويضيف

غارودي قائلا:" إن شخصا من رتبة ابن خلدون لا يمكن أن يظهر في الفراغ ونحن نتخيل عند قراءته مدى نمو الفكر العربي في عصره في مجال العلوم الاجتماعية" [47]

ويقول الأستاذ عبد المجيد مزيان : " لقد كان من الممكن لمن أتى من بعده من المثقفين العرب أن يؤسسوا مدارس خلدونية عديدة، مدرسة خلدونية في التاريخ أو مدرسة خلدونية في علوم التربية، أو الأخلاق، أو الاقتصاد أو العلوم السياسية وكلها يرجع إلى منبع واحد هو الخلدونية (...) ولو خيرت كل أمة بمن تقدمه لينوب عن ثقافتها وعبقريتها من بين المفكرين العالميين لما ترددت الأمة العربية الإسلامية في اختيار صاحب المقدمة بكل اعتزاز (...) ما أحوجنا ونحن نعاني من تشتيت العلوم الإنسانية ومفارقات العصر وأزماته الفلسفية الضخمة إلى استيحاء من الفكر الخلدوني الذي كان يطمح إلى هذا العلم العمراني المحتوي على كل العلوم" . [48]

أما الأستاذ عبد الله شريط فيقول:" والمقدمة التي دون فيها أروع آرائه عن المجتمع العربي، والمغربي منه بوجه خاص. كتبها في مدة لا تزيد عن خمسة أشهر، وهي عبارة عن موسوعة علمية في مختلف أنواع العلوم الاجتماعية ". [49]

أما ابن خلدون فيقول عن نفسه : «و أنا موقن بالقصور، من أهل العصور، معترف بعدها بالعجز عن المضاء، في مثل هذا الفضاء، راغب من أهل اليد البيضاء، والمعارف المتسعة الفضاء النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء »[50]

الهوامش والمراجع :

1 حيث تذهب بعض الدراسات، إلى أن المنهج التجريبي أسس له المسلمون قبل الأوروبيين، مثل دراسة (علي سامي النشار)، والتي جاء فيها :«المسلمون إذن هم مصدر هذه الحضارة الأوروبية القائمة على المنهج التجريبي .وإننا لنعلم أن (فرنسيس بيكون) قد قام بعد ذلك بشرح هذا المنهج ثم بحث فيه (جون ستوارت مل) محتذيا حذو العرب آخذا لكل ما توصلوا إليه، مرددا عباراتهم وأمثلتهم، وقد خطا المنهج التجريبي بعد (بيكون) و(مل) خطوات مختلفة ومتعددة في عهدنا الحاضر - واتخذ صورا أخرى على أيدي الأوروبيين» انظر: مناهج البحث عند مفكري الإسلام ط: دار النهضة العربية، بيروت 1984، ص 357 وهي رسالة للحصول على شهادة الماجستر في مايو 1942 (انظر تصدير ط:1، ص 11) والتي نشرت أول مرة في ديسمبر1947 (ص 12 تصدير ط:1)

ومثل دراسة محمود يعقوبي الموسومة بمسالك العلة وقواعد الاستقراء عند الأصوليين وجون ستورت مل حيث جاء فيها: «ولهذا فإننا نجد أن (محمد إقبال) لم يجانب الصواب عندما قال *: إن «الزعم بأن أوروبا هي التي استحدثت المنهج التجريبي، زعم خاطئ »، على الرغم من أنه لم يعتمد لإثبات قوله هذا على الدليل الصحيح الذي يبدو أنه كان في متناوله لو أنه كان ملما بالقدر الكافي من مسائل علم الأصول ولا سيما بمباحث العلة ومسالكها»، ديوان المطبوعات الجامعية 1994، ص 217 . وهي أطروحة لنيل شهادة دكتوراه الدولة من جامعة الجزائر والتي نوقشت يوم 5 فيفري 1991(انظر هامش المقدمة ص 8). ويقول اليعقوبي أيضا:« أن طرائق الوصول إلى العلة إنما ضبطها وحصرها علماء الأصول من قبل أن يظهر مثلها على لسان (فرنسيس بيكون)(1561 - 1626) أو (جون ستورت مل 1806 - 1873) بعدة قرون» المصدر نفسه، ص 7 . ويقول في موضع آخر:« إذا أنعمنا النظر في أهم ما ابتكره علماء الأصول في مباحث العلة، ماثلا في (مسالك العلة) فإننا نجده لا تختلف صورتها في شيء عن صورة طرائق الاستقراء والتي قام عليها العلم الحديث الذي أصبحت نتائجه وآثاره تمازج جميع مظاهر الحضارة في عالم القرن العشرين» ص 225 . * انظر: محمد إقبال تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود العقاد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1955، ص 148.

2 انظر مثلا: حسن الساعاتي : علم الاجتماع الخلدوني – قواعد المنهج – بيروت : دار النهضة العربية، 1972، ط، ص1(التمهيد)

3 مقدمة ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، بيروت، المكتبة العصرية ط:2005، ص 12.

4 الساعاتي، ص 38 .

5 المقدمة، ص 42.

6 نفسه، و الصفحة نفسها.

7 محمد عبد الرحمن مرحبا : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، بيروت :منشورات دار عويدات ص 782

8 محمد عبد الرحمن مرحبا : الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، م وك ط:3، 1989، ص506

9 الساعاتي، سابق، ص 13.

10 مرحبا :الجامع، ص ص510

11 انظر: مالك بن نبي :مشكلة الثقافة، بيروت :دار الفكر، ص ص 90 - 95 .

12 أبو حامد الغزالي : المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال.تحقيق د/جميل صليبا.ود/كمال عياد.ط:3. دار الأندلس 1983م ص 77و ما بعدها.

13 أبو حامد الغزالي : تهافت الفلاسفة. تحقيق سليمان دنيا.ط: 6. دارالمعارف (بدون تاريخ).المسألة17.ص 241.

14 انظر: غاستون باشلار :تكوين العقل العلمي، ترجمة خليل أحمد خليل، بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط6، 2001.

15 انظر : محمد ثابت الأفندي: أصول المنطق الرياضي، بيروت :دار النهضة العربية، 1976.ص ص 22 - 23

* في هذا الصدد، تعد دراسة حسن الساعاتي من أفضل الدراسات – على ما نعلم - في عرض المنهج الخلدوني عرضا واضحا ومبرهنا.انظر: حسن الساعاتي :علم الاجتماع الخلدوني، قواعد المنهج، بيروت دار النهضة العربية 1972.

16 منجد اللغة والأعلام، بيروت: دار المشرق، ط40، 2003، ص397.

17 مراد وهبة :المعجم الفلسفي، مصر : دار الثقافة الجديدة، ط:3، 1979 ص 232. انظر أيضا : علي بن محمد الشريف الجرجاني :كتاب التعريفات، بيروت مكتبة لبنان، 1985، ص134.

18 نفسه والصفحة نفسها.

19 الحجرات، الآية12.

20 منجد اللغة والأعلام، ص 748.

21 آل عمران، الآية141.

** راجع المقدمة، مصدر سابق، ص ص 16 - 34

22 المقدمة، ص ص 16 - 18.

23 الساعاتي: علم الاجتماع الخلدوني، ص ص44 - 45.

24 نفسه، ص 45.

25 المقدمة، مصدر سابق، ص ص 16 - 17.

26 الساعاتي، ص 40، هامش 1.

27 انظر: أسباب النزول في تفسير ابن كثير، ج 6، بيروت: دار الأندلس 1986، ص 372وما بعدها. وجاء في مختصر تفسير الطبري.« ذكر المفسرون أن النبي صلى الله عليه وسلّم بعث" الوليد بن عقبة" إلى الحارث بن ضرار ليقبض ما كان عنده من الزكاة التي جمعها من قومه، فلما سار الوليد واقترب منهم خاف وفزع، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله: إنهم منعوا الزكاة وهمّوا بقتلي، فأشار بعض الصحابة إلى الخروج لقتالهم..فنزلت الآية» . اختصار وتحقيق الشيخ محمد علي الصابوني ود/صالح أحمد رضا، الجزائر، مكتبة رحاب ط 2، 1987. المجلد الثاني، ص377(الهامش).

28 سورة الحجرات، الآية 6.

29 مختصر الطبري، ص 377.

30 سورة النجم الآية 28.

31 مرحبا :الجامع في تاريخ العلوم عند العرب.ص509.

32 مقدمة ابن حلدون، مصدر سابق، ص 411.

33 يوسف مصطفى القاضي :مناهج البحوث وكتابتها، الرياض :دار المريخ 1979 ص ص 21 - 22.

34 الغزالي :المنقذ من الضلال ص 84.

35 نفسه ص 85.

36 انظر:محمد حسني الزين: منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري، المكتب الإسلامي، ط: 1 بيروت 1979، ص 42

37 السيوطي :صون المنطق، ط1، مصر ص 202في محمد حسني الزين: منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري، ص 44.

38 الساعاتي، ص42.

39 يوسف مصطفى القاضي :مناهج البحوث وكتابتها. ص106

40 عبد المجيد مزيان :النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون وأسسها من الفكر الإسلامي والواقع المجتمعي، ش ون ت الجزائر 1981 ص 64

41 41 المقدمة ص 40.

42 ابن عمار الصغير: التفكير العلمي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر.ص89 وانظر: المقدمة ص 46.

43 نفسه، ص 91 .وانظر: المقدمة ص 353.

44 نفسه، ص 89.

45 أنظر مثلا:بشير صالح الرشيدي :مناهج البحث التربوي، دار الكتاب الحديث، ط:1. 2000، ص ص 51 - 53

46 روجه غارودي:حوار الحضارات، ترجمة عادل العوا بيروت –باريس منشورات عويدات 1978ص 107 .

47 نفسه، ص108

48 من كلمة الافتتاح التي ألقاها في ملتقى فرندة(تيارت)حول فكر ابن خلدون موسومة ب:" من أجل خلدونية جديدة مبدعة" في الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الثقافة بالجزائر عدد77سبتمبر - أكتوبر1983، ص 9 - 10.

49 عبد الله شريط: نصوص مختارة من فلسفة ابن خلدون م وك 1984، ص 10.

50 المقدمة، مصدر سابق، ص 14.